تصدير

اختارتنى « الجامعة المصرية » سنة ١٩٣١ عضوا ببعثتها لمواصلة دراسة الفلسفة فى جامعة باريس .

وفى سنة ١٩٣٢ كنت مشغولا بإعداد شهادة « الأخلاق والاجتماع » وهى إحدى الشهادات التى تتألف منها درجة « ليسانس التعليم » بتلك الجامعة[1] . وكان من حسن حظى وحظ زملائى فى ذلك الحين أن جاء

---

(١) نود أن نلاحظ هنا أن كلية الآداب بباريس تمنح لطلبة نوعين من الليسانس فى الآداب : إحداهما عامة ، وتسمى « الليسانس الحرة » « La Licence libre » ، وتتألف من أربع شهادات يختارها الطالب نفسه من بين مختلف الشهادات التى تمنحها الكلية (بشرط عدم التعارض بينها) . والأخرى خاصة ، وتسمى « ليسانس التعليم » « La Licence d'enseignement » أو « ليسانس الدولة » ؛ وهى عبارة عن أربع شهادات إجبارية ، تتألف منها إحدى المجموعات الأربع المعروفة فى الكلية .

وغنى عن البيان أن « ليسانس التعليم » هى الدرجة العلمية التى تعترف بها =

الأستاذ « ألبير بايبه » إلى السربون ، ليحاضرنا فى العلم والأخلاق : فكنا نستمع وقتذاك إلى محاضرات فياضة بلغت الغاية فى العمق والنفاذ والإمتاع ، وامتازت بأنها مع التزامها سبيل التجربة والواقع ، تفتح دائماً أمام أنظارنا آفاقاً واسعة غير محدودة . والحق لقد كانت طريقة الأستاذ « بايبه » فى التعليم طريقة سمحة حرة لا تعرف تزمتا ولا ضيقا ولا جمودا : فكان هو نفسه يحث تلاميذه على أن يداوموا التفكير بأنفسهم ، دون أن يتقيدوا برأى من الآراء ما لم يقم عليه دليل من العقل أو التجربة ؛ وكثيرا ما كان يتهلل وجهه بشرا حين يرى الطلاب وقد أقبلوا عليه فى نهاية المحاضرة ، ليناقشوه ، أو ليوجهوا إليه الأسئلة والاعتراضات ، أو ليطالبوه بزيادة فى الإيضاح والبيان .

ذهبت إليه ذات مرة مع بعض الزملاء عقب محاضرة له فى السربون

= الدولة الفرنسية وتعتبرها مؤهلة صاحبها للقيام بوظائف التعليم فى المدارس الثانوية أما « الليسانس الحرة » فلقب لا أكثر ، ولا تعطى حاملها أي حق قبل الدولة . وما قلناه عن « الليسانس » بنوعيها يقال أيضا عن « الدكتوراه » الفرنسية ؛ فهى كذلك على نوعين : « دكتوراه الجامعة » « Doctorat de l'Université » و « دكتوراه الدولة » أو « دكتوراه الآداب » على الإطلاق « Doctorat ès Lettres » . والدكتوراه الثانية هى المعتبرة ، وهى تشتمل على رسالتين ، ولا بد أن تكون إحداهما عملا علميا ذا أصالة لا نزاع فيها .

ودارت المناقشة بين الأستاذ وتلاميذه زمنا طويلا ؛ ولبثت أنا صامتا منصتا لما يقال دون أن أقول شيئا . فسألنى الأستاذ إن كان لدىّ اعتراض فقلت له : « ليس لدىّ اليوم من ذلك شىء » . فلما سألنى عن السبب قلت : « إنك يا سيدى محاضر ساحر . فأمهلنى إلى الأسبوع القادم لعلى أكون قد أفقت من سحرك ! » . فضحك الأستاذ وقال : « إن كان الأمر كذلك فإنى مُعينك على أن تفيق ... إن مقصدى أن أصل معكم إلى الحقيقة . ولكم علىّ منذ الأسبوع القادم أن أعرض عليكم قبل المحاضرة ملخصا لها فى صورة قضايا رياضية جافة موجزة . ويخيل إلىّ أن صورتها تلك ستدعوكم إلى محاولة نقضها أو تجريحها » . وكذلك فعل الأستاذ بعد ؛ فكنا نلقاه عقب كل محاضرة لتوجيه مايعنّ لنا من أسئلة ، أو للإدلاء بما يعرض لنا من صعوبات ؛ وكان هو يجيب دائما على أسئلتنا أو اعتراضاتنا برحابة صدر وابتهاج .

وقد أثمرت هذه الطريقة أحسن الثمرات : علمتنا دروسا حية فى التواضع والحرية والسماحة ، وبثت فينا شيئا من خصال الشك والنقد والإنصاف ، وكلها صفات لازمة لقيام « الروح الفلسفى » أو « الروح العلمى » الذى هو الرسالة الأصيلة لكل جامعة تريد أن تقوم بواجبها على الوجه السليم .

ولم تنقطع صلتى بالأستاذ « بابيه » بعد حصولى على الليسانس ودبلوم الدراسات العالية ، ولا أثناء اشتغالى بإعداد « الأجرجاسيون » ورسالتى الدكتوراه ، بل كنت دائما شديد الحرص على الاستماع لمحاضراته وأحاديثه داخل السربون أو خارجها . ولقد ذهبت إليه يوما وفى يدى نسخة من كتابه « La Morale de la Science » (وهو هذا الكتاب الذى أنشره بعنوان «دفاع عن العلم») وقلت له إن لى على الكتاب بعض الملاحظات . فابتسم كعادته ، وقال : «هات ما عندك» . فقلت : «إنى أعترض أولا على العنوان : فإن فيه التباسا يظهر على الخصوص إذا ترجم الكتاب إلى لغة أجنبية» . فوافقنى الأستاذ ، ووعد أن يغير العنوان فى الطبعة التالية[1] . ثم وجهت اعتراضات أخرى إلى صميم الموضوع ، وتناقشنا فيها ، فاقتنعت ببعض حججه دون بعضها الآخر . وساقنى الحديث إلى أن أطلب منه الإذن بنقل الكتاب إلى اللغة العربية ، فأذن لى عن طيب خاطر . وشرعت فى الترجمة سنة ١٩٣٦ ، ولكن حال دون إتمامها انشغالى بالأجرجاسيون والدكتوراه .

---

(١) لم تظهر طبعة أخرى للكتاب إلى اليوم . وقد رأيت أن يكون « دفاع عن العلم » عنواناً له بالعربية ، لأنه أدل على الموضوع وأبعد عن الالتباس من العنوان الأصلى : « أخلاق العالم » .

وعدتُ إلى مصر سنة ١٩٣٩ ، فعهد إلىّ بتدريس تاريخ الفلسفة بجامعة فؤاد الأول ، وشغلتُ من جديد بدراسة «الرواقيين» و«ديكارت» و«سپينوزا» و«هيوم» و«كانْت» و «محمد عبده» و «ف . ك . س . شلر»...فوفقنى الله إلى إنشاء سلسلة «أعلام الفلسفة» ونشرتُ عن بعض هذه الشخصيات كتبا وبحوثا عربية وفرنسية . ونسيت كتاب أستاذى «بابيه» ، حتى كان العام الماضى إذ طالعتنى الأنباء بعودة الأستاذ إلى نشاطه العلمى بعد بلائه الوطنى فى حركة تحرير فرنسا ، فعاودنى الشوق إلى إنجاز ما كنت شرعت فيه. واقترنت هذه الرغبة الخاصة برغبة عامة كانت تلح علىّ وقتا طويلا لنقـــل تراث الغرب الفلسفى إلى أبناء الشرق العربى ، فـكان لى شرف القيام بإنشاء سلسلة : « نفائس الفلسفة الغربية » ، التى يسعدنى أن يكون كتاب : « دفاع عن العلم » ، أول ما أقدمه منها إلى قراء العربية .

ولقـد عدتُ إلى الترجمة فأكملتها ، وكتبت إلى الأستاذ المؤلف أستأذنه من جديد فى نشر تلك الترجمة ، فتفضل مرة أخرى بإرسال ذلك الإذن ، مع مقدمة كتبها خاصة لهذه الطبعة العربية . وقد رأيت أن أنشر خطاب الإذن والمقـــدمة بنصهما الفرنسى ، مع ترجمـة عربية لهما .

وإنى لأحمد الله الذى هيأ لى أن أعرف الأستاذ « ألبير بايه » معرفة شخصية ، وأن أحظى بالاستماع إلى محاضراته الممتازة فى السربون وفى غير السربون من المعاهد والجماعات العلمية الباريسية . ولا يسعنى إلا أن أكرر له الشكر الوافر على الثقة الغالية التى وضعها فى شخصى حين أذن لى بترجمة هذا الكتاب الجميل الفتان .

القاهرة : فى اكتوبر ١٩٤٦ عثمان أمين

خطاب الأستاذ باييه

إلى المترجم

Le 10 nov. 45.

Cher Amine,

Je vous envoie ce que vous m'avez demandé : une courte notice sur moi-même, et une préface nouvelle pour la Morale de la Science.

Je serai très heureux que ce Livre soit traduit en arabe, car vous savez ma vieille amitié pour le monde arabe, et je serai doublement heureux que le traducteur soit vous. Je garde toujours l' espoir de pouvoir aller en Egypte, mais, en ce moment, on est écrasé de besogne.

Croyez, cher ami, à mon affectueux dévouement.

Albert Bayet.

١٠ نوفمبر ١٩٤٥

عزيزى أمين

أبعث إليك بما طلبت منى : كلمة موجزة فى سيرتى ، ومقدمة جديدة « لأخلاق العلم » . وإنى لأكون سعيداً جداً بأن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، فإنك تعلم ما تنطوى عليه نفسى من صداقة قديمة للعالم العربى . ويسعدنى مرة أخرى أن يكون المترجم هو أنت . وإنى مازلت دائم الأمل فى أن أتمكن من الذهاب إلى مصر . ولكنا فى هذه الآونة مثقلون بالمشاغل والأعباء .

وثق أيها الصديق العزيز بما أحفظه لك فى قلبى من الود والوفاء .

ألبير باييه

كلمة للمعرب

عن الأستاذ

ألبير بابيه (ALBERT BAYET)

ولد « ألبير بابيه » فى مدينة ليون بفرنسا سنة ١٨٨٠ ؛ والتحق بمدرسة المعلمين العالية بباريس سنة ١٨٩٨ ؛ وفى السنوات الأولى للقرن العشرين انضم إلى « المدرسة الاجتماعية الفرنسية » التى كان يشرف عليها الأستاذ «إميل دوركايم» Emile Durkheim العالم الاجتماعى المشهور وفرغ الأستاذ بابيه للبحوث المتصلة بعلم الاجتماع التشريعى وعلم الاجتماع الأخلاق ؛ وتدل على هذا المنحى مؤلفاته الأولى : « الأخلاق العلمية » « La Morale Scientifique »، «وفكرة الخير» «L'Idée de Bien».

ووقعت حرب سنة ١٩١٤ ، فعاقت الأستاذ عن إكمال كتابه الكبير عن « الانتحار والأخلاق » الذى يعدّ ظهوره حادثا خطيرا فى تاريخ علم الاجتماع : إذ أدخل فيه مؤلفه مناهج جديدة كل الجدة فى مجال الاجتماع الأخلاق ، وقلب أغلب ما كان الباحثون السابقون يتلقونه بالتسليم من آراء عن الأصل فى استنكار الانتحار والأصل فيما يوقع عليه من عقوبة .

وبعد هذا بقليل نشر المؤلف كتابا فى « علم الوقائع الأخلاقية » « La science des faits moraux » حدّد فيه ما رأى أن يوصى

الباحثين باتباعه من مناهج البحث ، و بيّن أن واجب علم الاجتماع الأخلاق أن لا يقصر بحثه على الوقائع القانونية والمذاهب الفلسفية ، بل ينبغى أن يدرس الوقائع اللغوية والوقائع الأدبية أيضا .

وشرع الأستاذ بعدئذ فى نشر مؤلف له كبير عن « تاريخ الأخلاق فى فرنسا » « L' Histoire de la Morale en France » ؛ وقد ظهر منه مجلدان قبل الحرب الأخيرة ، أولهما فى « أخلاق الغاليين » « La Morale des Gaulois »، والثانى فى «الأخلاق الغالية الرومانية» « La Morale gallo-romaine »

وفى هذه الفترة نفسها نشر الأستاذ بابيه بحثا عن « مذاهب الأخلاق فى الإنجيل » « Les Morales de l' Evangile » ، وكتابا عنوانه : « ما المذهب العقلى ؟ » « Qu' est-ce que le Rationalisme ? » ونشر أخيرا كتاب « دفاع عن العلم » الذى نقدمه اليوم إلى قراء العربية .

* * *

ولقد اشتغل الأستاذ بابيه منذ سنة ١٩٣٢ بتدريس علم الأخلاق فى السربون ، ومضى فى أداء مهامه الجامعية ، يحاضر و يؤلف و يشرف على بحوث تلاميذه فى «مدرسة الدراسات العالية » وغيرها . ولقد كنا من بين من أسعدهم الحظ بتلقى العلم على هذا العالم المشرق والمحاضر المتدفق وقد انتفعنا بدروسه القيمة فى السربون ، وقراءة بحوثه الجذابة فى الصحف والمجلات الفرنسية .

ولم يطب للأستاذ بابيه ، على الرغم من نشاطه العلمى الخصب ، أن يأوى إلى برج من العاج ، أو يعتزل شئون السياسة ، بل رأينا له منذ كنا فى فرنسا قبل الحرب الأخيرة نشاطا ملحوظا : رأيناه يناضل النازية والفاشية نضالا دائبا ، كما تولى رياسة «عصبة حقوق الإنسان » « La Ligue des Droits de l' Homme » ، و « عصبة التعليم» «La Ligue de l' Enseignement» ، و « الاتحاد العقلى » «L' Union Rationaliste » ، و « اتحاد المفكرين المناوئين للفاشية» « L' Union des Intellectuels anti-fascistes » .

ولما كانت سنة ١٩٤٠ عزلته حكومة فيشى من عمله فى السربون . فانضم أثناء الاحتلال الألمانى إلى حركة المقاومة « فران تيرور » «Franc-Tireur» ، وأصبح رئيسا « لاتحاد الصحافة السرية » ، فاتخذ العدة بصفته هذه ، وبالاتفاق مع ممثلى حكومة الجنرال دوجول ، لظهور صحف فرنسية جديدة ، لكى تحل محل الصحف المأجورة لهتلر وبيتان. ومن المعروف أن هذه الصحف الجديدة قد ظهرت فعلا إبان التمرد الوطنى وأن الأعداد الأولى منها بيعت فى نفس المعركة حول « الحواجز الباريسية « Les barricades parisiennes » .

وفى فترة الصراع السرى نشر الأستاذ بابيه كتابا صغيرا عنوانه :

« بيتان والطابور الخامس » « Pétain et la cinquième colonne » بيّن فيه أن فرنسا سنة ١٩٤٠ لم تهزم من الناحية العسكرية ، وإنما سلمتها إلى العدو عصابة من الخونة أرادت أن ينتصر هتلر .

وفى سنة ١٩٤٥ اختير الأستاذ بابيه عضوا فى « الجمعية الاستشارية » مندوبا عن حركة « المقاومة » .

ولما أصبح الأستاذ رئيسا « للاتحاد الوطنى للصحافة الفرنسية » « Fédération Nationale de la Presse Française » لم يشأ أن يتقدم إلى الانتخابات العامة ، ليتسنى له أن يفرغ إلى تعليمه فى السربون ، وإلى بحوثه فى علم الاجتماع . وقد علمنا أنه سينشر فى القريب كتابا كبيراً فى علم الاجتماع عنوانه « الأخلاق واللغة » .

☆☆☆

ولعل ما يميز بحوث الأستاذ بابيه هو اتجاه جهوده إلى تحديد فرع خاص من فروع العلم الاجتماعى ، وهو العلم الخاص المنصب على الوقائع الأخلاقية، أو كما يسميه الأستاذ بابيه علم «الإيثولوچيا» Ethologie [1]

---

(١) لفظ « الايثولوجيا » « Ethologie » لفظ لا يخلو من التباس . فقد يبدو أنه إنما جعل منذ « جون ستيورات ميل » خاصا بعلم السمات أو الصفات التى يتصف بها الفرد أو الجماعة .

وهو يعنى بهذا دراسة القواعد والأحكام الأخلاقية دراسة وصفية تفسيرية محضة ، وبمعزل عن كل محاولة لمناقشتها أو تبريرها ، بل مع الاقتصار على دراستها كما تكشف عنها الصيغ واللغات والقوانين والعادات والآداب بصرف النظر عن كل ما يمكن أن ينسب إلى الفرد فى أصلها ونشوئها . ولقد أعطى الأستاذ نفسه أمثلة لهذا النوع من المباحث فى كتاب مستفيض شائق عن : « الانتحار » ، وفى كتابه عن : « علم الوقائع الأخلاقية » .

AVANT - PROPOS

Ce livre a été rédigé avant la dernière, guerre. Il tend à démontrer que la Science n'est nullement responsable des inventions meurtrières que les hommes tirent de ses découvertes,et qu'il y a, au contraire, une "morale de la science" qui, sur un grand nombre de problèmes essentiels, pourrait faire l'unité des hommes.

La question qne je traitais il y a une dizaine d'années est encore devenue plus brûlante au lendemain de la dernière guerre. La lutte menée par les Démocraties contre l'effroyable régression fasciste a produit un grand nombre d'armes nouvelles. Elle a suscité notamment cette "bombe atomique" qui, des ses débuts, a permis des destructions inouies et qui, si on la perfectionnait, mettrait en péril l'existence même de l'Humanité.

Bien entendu, les peuples, justement émus par cet effroyable péril, s'en prennent à la Science. Ils la rendent responsable des deuils et des ruines que l'invention nouvelle a déjà suscités, de ceux qu'elle pourrait susciter demain.

Je crois qu'il y a la une erreur totale et grave. La Science, comme j'ai essayé de le démontrer dans cette étude, est uniquement, exclusivement, un effort

obeikandl.com

de connaissance. Elle tend à nous faire connaitre de façon toujours précise la réalité, à dégager des faits et des lois positives.

Oeuvre purement intellectuelle et qui ne se propose pas d'autre fin que le progrès illimité de l'esprit humain.

Malheureusement, ces découvertes, dont le nombre, depuis un siècle s'accroit magnifiquement, surgissent dans des sociétés qui ne sont pas des sociétés de sages : d'où il résulte qu'on les utilise tantôt pour le bien, tantôt pour le mal.

Le biologiste découvre-t'il l'action d'une substance sur le corps humain? Le médcin s'en sert pour guérir, l'empoisonneur s'en sert pour tuer.

Le physicien découvre-t'il les lois sur lesquelles reposent le cinéma, la T S F ? Les uns s'en servent pour propager la vérité et la beauté, les autres pour propager le mensonge et la sottise.

Il en va de même pour la bombe atomique. Des savants illustres, à la tête desquels se trouve le français Joliot Curie, découvrent le moyen de capter l'énergie intra-atomique : les uns s'en servent pour fabriquer des engins de meurtre et de ruine ; d'autres, demain, peuvent s'en servir pour élever merveilleusement le niveau de vie des hommes.

Ce n'est donc pas la science qui est coupable : ce sont ceux qui l'utilisent pour des fins injustes.

Il y a plus : non seulement la science n'est pas

coupable, mais elle porte en elle un idéal, une morale, qui, si nous savions les suivre, nous apporterait noblesse et bonheur.

La science, c'est ce que j'essaie de démontrer dans ce livre, implique l'idée que ce qui fait l'essentielle dignité de l'homme, c'est l'audace conquérante de la pensée; elle implique l'idée que la Liberté est la condition nécessaire de tous les progrès; elle implique enfin l'idée que l'union des esprits et des coeurs peut, et par conséquent doit se faire dans l'acceptation commune des vérités démontrées et des méthodes qui rendent cette démonstration possible.

Dignité de l'esprit, liberté, union : tel est donc le triple mot d'ordre de la morale de la science. Si l'humanité les écoutait, c'en serait fait des guerres, c'en serait fait des inégalités sociales et de l'exploitaion de l'homme; c'en serait fait de la misère ; c'en serait fait de toutes les contraintes qui oppriment la vie des peuples et la vie des individus.

Alors, la question se pose : allons-nous continuer à nous servir de la Science contre la Science? Allons-nous, au contraire, prêter, l'oreille à l'enseignement moral qu'elle implique et qu'elle nous propose?

Plus que jamais il nous faut choisir.

Le monde vient d'être secoué et ensanglanté par la plus effroyable crise qu'ait connue l'histoire des hommes. A peine sorti de la tourmente, il cherche en

tâtonnant le moyen de prévenir un nouveau désastre, et il se rend compte que, pour affermir la paix, pour organiser la collaboration internationale, il faut trouver des principes moraux acceptables pour tous les hommes. Ces principes, à qui les demander? Chacun se tourne d'instinct vers "sa" philosophie, ves "sa" religion, vers "sa" morale. Mais ces philosophies, ces religions. ces morales, valables en un lieu du monde, sont combattues ou ignorées en d'autres. Ici, c'est le christianisme qui prévaut, là c'est le bouddhisme, là le confucianisme, là l'Islam. La sagesse de l'Inde n'est pas celle de l'Occident. La Science, au contraire, a ce privilège qu' elle est partout la même pour tous et qu'on ne conçoit même pas une géométrie catholique distincte de la géométrie musulmane, une physique russe distincte de la physique américaine, une biologie française distincte de la biologie arabe. Sans contrainte, sans aucun recours à la force ou à l'autorité, la démonstration fondée sur la raison et l'expérience fait en tous lieux l'union spontanée des esprits. On a versé des flots de sang pour la Croix ou pour le Croissant, on n'a pas versé une goutte de sang pour le théorème de Pythagore, la loi de Newton, la relativté, le quantisme ou la Mécanique ondulatoire. Alors ponrquoi ceux qui communient dans un même respect des vérités établies

par la Science ne communieraient-ils pas dans un même respect des principes moraux dont la Science est née et qu'elle implqiue ?

Cette communion possible est, je crois, la grande espérance du monde. Si elle ne se réalise pas, les hommes vont vers des catastrophes pires que toutes celles qui les ont éprouvés dans le passé. Si elle se réalise, nous pouvont dès à présent utiliser les ressources inouies dont la Science nous a rendus maitres pour supprimer à jamais la misère, faire que l'aisance, au lieu d'être le privilège de quelques-uns, soit le partage de tous, réduire infiniment les contraintes qui nous asservissent et diriger tous les hommes vers les activités les plus hautes et les plus nobles.

C'est avec l'espoir de contribuer à cette grande victoire que je dédie le livre qu'on va lire à tous les hommes de bonne volonté.

Albert Bayet

obeikandl.com

مقدمة خاصة للطبعة العربية

بقلم المؤلف

ألّفتُ هـذا الـكتاب قبل الحرب الأخيرة ، وقصدت فيه إلى أن أبيّن أن العلم ليس بمسئول مطلقا عن المخترعات الفتاكة التى يستخلصها الناس من كشوفه ، وأن أثبت خـلافا للرأى الشائع ، أن « للعلم » « أخلاقا » قد تستطيع أن تجمع شمل الناس حول عدد غير قليل من المشـكلات الخطيرة .

بحثتُ هذه المسألة منذ أكثر من عشر سنوات . وها هى ذى تعود غداة الحرب الأخيرة أشد إلحاحا مما كانت من قبل : فقد أنتج الصراع الذى شنه أنصـار الديموقراطية على الرجعة الفاشية المروعة كثيرا من الأسلحة الجديدة ، لا سيما « القنبـلة الذرية » تلك التى استطاعت فى باكورتها أن تحدث من التخريب مالم يسمع به من قبل ، والتى إذا قدّر لها الاتقان ، قد تعرّض وجود الإنسانية نفسه لخطر عظيم .

من الأمور الطبيعية أن ترتاع الشعوب لهذا الخطر المفزع ، فتنصب

جام غضبها على العلم ، وتحمله مسئولية ما نتج عن الاختراع الجديد ، ومسئولية ما قد ينجم عنه فى المستقبل من قتل ودمار .

أعتقد أن هذا خطأ كبير . وقد حاولت أن أبيّن فى هذا البحث أن العلم ما هو إلا مجهود لمعرفة فحسب ، وأن مقصده أن يعيننا على أن نعرف الواقع معرفة دقيقة دائما ، وعلى أن نستخلص الوقائع والقوانين الوضعية . فمهمته مهمة عقلية محضة ، وليس له مقصد إلا تقدم الذهن الإنسانى تقدما غير محدود .

ولكن مما يؤسف له أن هذه الكشوف التى يزيد عددها منذ قرن من الزمان زيادة رائعة إنما بزغت فى مجتمعات ليست مجتمعات حكماء ، فنتج عن ذلك أنها استخدمت تارة للخير وتارة للشر .

قد يستكشف البيولوجى أثر مادة ما على بدن الإنسان ، فيستخدم الطبيب ذلك الأثر فى العلاج ، ويستخدمه المجرم فى القتل . وقد يستكشف عالم الطبيعة القوانين التى تقوم عليها السينما والراديو ، فيستخدمها بعض الناس لإذاعة الحق والجمال ، ويستخدمها البعض الآخر لنشر الأكاذيب والقبائح .

وكذلك القنبلة الذرية : فقد قام جلة من العلماء ، وعلى رأسهم العالم الفرنساوى « جوليو كورى » ، بكشف وسيلة يستحوذون بها على الطاقة الكامنة فى الذرة ، فاستخدمها بعض الناس لصنع معدات القتل

والدمار ، وقد يستخدمها آخرون غدا لرفع مستوى حياة الناس إلى منزلة باهرة .

وإذن فليس العلم هو الآثم ، وإنما يحمل العلم فى نفسه مثلا أعلى ، ومذهبا أخلاقيا لو اهتدينا إلى اتباعهما لأوتينا نبلا وسعادة .

وقد حاولت أن أبين فى هذا الكتاب أن العلم متضمن ثلاث فكرات : الأولى أن إقدام الفكر وجرأته الفاتحة هما صميم الكرامة الإنسانية . والثانية أن الحرية هى الشرط الضرورى لكل رقى . والثالثة أن من الممكن ، بل من الواجب أن يتم ائتلاف العقول والقلوب إذا قبل الناس الحقائق التى أثبتها البرهان ، وقبلوا المناهج التى تمكّن من إقامة ذلك البرهان .

وإذن فكرامة الذهن والحرية وائتلاف البشر ، هى كلمات السر الثلاث لأخلاق العلم . ولو أنصتت الإنسانية لها لذهبت الحروب والمظالم الاجتماعية واستغلال الإنسان للإنسان، ولقضى على عهد البؤس ، ولانتهت جميع ضروب الطغيان الذى يرهق حياة الشعوب وحياة الأفراد .

ومن أجل هذا وجب أن نتساءل : أنمضى فى استخدام العلم لمحاربة العلم ؟ أم ننصت إلى ما ينطوى عليه وما يقدمه إلينا من هداية أخلاقية ؟

وينبغى علينا أن نختار الآن أكثر من أى وقت مضى : فقد اهتزت أرجاء العالم ، ولطخ بالدم أديمه فى أزمة هى أشد ما عرف تاريخ الإنسانية

هولا . وما كاد يزايل كربته هذه حتى أخذ يتلمس السبيل لدرء كارثة جديدة ، وهو عارف أنه لابد ، لتثبيت السلام الدائم وتنظيم التعاون بين الأمم ، من الاهتداء إلى مبادىء أخلاقية يقبلها الناس جميعا . فإلى من تطلب هذه المبادىء ؟

يتجه كل إنسان بغريزته إلى فلسفته « الخاصة » ، وإلى دينه « الخاص » ، وإلى مذهبه « الخاص » فى الأخلاق . ولكن هذه الفلسفات وهذه الأديان وهذه الأخلاق إذا وجدت قبولا فى مكان مامن العالم فهى واجدة مناوأة أو إعراضا فى أماكن أخرى : تكون الغلبة للمسيحية هنا ، وللإسلام أو للبوذية أو للكنفوشيوسية هناك ؛ وليست حكمة الهند حكمة الغرب أما العلم فله ميزة انفرد بها ، وهى أنه واحد فى كل مكان وعند جميع الناس ؛ وما يدور بخلد أحد أن تكون هناك هندسة كاثوليكية متميزة من الهندسة الإسلامية ، ولا علم طبيعة روسى مخالف لعلم الطبيعة الأمريكانى ، ولا بيولوجيا فرنسية مستقلة عن البيولوجيا العربية . والبرهان القائم على العقل والتجربة هو الذى يخلق الوحدة والائتلاف بين النفوس ، عفوا ودون إكراه أو التجاء إلى القوة أو السلطة . ولقد أهدرت الدماء أنهارا من أجل « الصليب » أو من أجل « الهلال » ، ولكن لم تهدر قطرة دم واحدة من أجل نظرية فيثاغورس ، أو من أجل قانون نيوتون ، أو قانون النسبية ، أو نظرية

« الكوانتا » أو الميكانيكا التموجية . وإذن فلم لا يكون المتآخون فى احترام الحقائق التى محصها العلم ، إخوانا متحابين فى احترام المبادىء الأخلاقية التى نشأ العلم منها واشتمل عليها ؟

أعتقد أن هذه الأخوة الممكنة هى معقد رجاء العالم : فإن لم تتحقق سار الناس إلى كوارث أنكى من جميع ما دهاهم فيما مضى ؛ وإن تحققت استطعنا منذ اليوم أن نستخدم ماذَلل العلمُ من موارد عجيبة ، لنقضى قضاء باتا على البؤس ، ولنجعل رغد العيش أمرا ميسورا لجميع الناس ، لامتزة لبعض المجدودين ، ولنخضد شوكة الطغيان الذى يستذلنا ولنوجه جميع الناس إلى أرفع ضروب النشاط وأنبلها .

ولما كان مأمولى أن أعاون الساعين لتحقيق هذا النصر العظيم ، فإنى أهدى هذا الكتاب إلى جميع العاملين المخلصين .

باريس ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٥ ألبير بايه